بنية الحكاية في قصة الإطار«الحمار الذهبي» لأبوليوس أنموذجا

أ. وردة سلطاني جامعة ـــ باتنة

تمهيـــــد:

يعد لوكيوس أبوليوس من مؤسسي الرواية في تاريخ الإنسانية، عاش في القرن الثاني الميلادي، ولد أبوليوس في مدينة مداور* بنوميديا ينتمي إلى قبيلة جدالة البربرية يقول في هذا الصدد "أنا نصف نوميدي ونصف جدالي"كان فخورا لكونه ينتمي إلى هذه القبيلة، وإلى مدينة مداوروش مفتخرا بمغربيته، على الرغم من أنه عاش في فترة كانت الحضارة الرومانية في أوج ازدهارها، وكانت مداوروش من أزهى المستعمرات الرومانية توجد بها جامعة هي الثانية بعد جامعة روما (1). درس في مداوروش وقرطاجنة وروما وأثينا، أتقن اللغتين اليونانية واللاتينية وكتب مؤلفاته بها، كان أديبا، كاتبا وفيلسوفا، برع في الفلسفة حتى سمي أفلاطون مداوروش. له مؤلفات كثيرة في شتى العلوم والفلسفة، وقد ترك في مجال الأدب قصته الرائعة «الحمار الذهبي»(2) وقد وصلنا نصها كاملا كانت تعرف باسم مسخيات.

ملخص الرواية:

لوكيوس بطل الرواية يقوم برحلة إلى مقاطعة ثيساليا(3)، وأثناء الطريق التقى برجلين انضم إليهما، كان أحد الرجلين يحكى لصديقه قصة حول السحر فلم يصدقه زميله، لكنها أثارت الفضول عند لوكيوس لسماعها. واصلوا الطريق، وافترقوا عند وصولهم ثيساليا، نزل لوكيوس ضيفا عند ميلو البخيل، وكانت زوجته تمارس السحر، التقى في السوق صديقة أمه التي دعته أن يترل ضيفا عندها وحذرته من زوجة ميلو، لكن فضوله جعله يرفض ويصر الإقامة عند ميلو حتى يتعرف على الأعمال السحرية، ثم بدأ يتقرب من الخادمة فوتيس لكي تحقق له مبتغاه وتعطيه بعض المرهم الذي

تستعمله الساحرة لكي يحول نفسه إلى نسر ، وبعد محاولات عديدة لبت طلبه لكن العلب اختلطت، وخطأ بدل أن تقدم له المرهم المطلوب أعطته المرهم الخطأ، دهن جسمه، وبدل أن يصبح نسرا، تحول إلى حمار. وعلاج التحول سهل، وهو أن يقضم الورد ليعود إلى هيئتة الأولى، لكن فوتيس لم تجد الورد فوعدته في الصباح الباكر أن تحضر له الورد، لكن من سوء حظ لوكيوس أن داهم اللصوص البيت تلك الليلة وأخذوا المال والمتاع وقادوا الحمار معهم إلى المغارة وبدأت متاعب لوكيوس. وفي أحد الأيام اختطف اللصوص فتاة ليلة زفافها حتى يبتزوا والدها وعندما خلصها زوجها من اللصوص أخذها فوق الحمار وأعادها إلى والدها ، أرادت الفتاة أن ترد الجميل إلى الحمار فأوصت والدها أن يقدمه إلى رئيس الإسطبل ليأخذه إلى المرعى ليستريح، لكن رئيس الإسطبل أخذه لإدارة الرحى، ثم ليجلب الحطب وناله من التعب ما ناله، وعندما ماتت الفتاة أخذه رئيس الإسطبل فعذبه كثيرا ،ثم انتقلت ملكيته إلى رهبان، سرقوا تمثال استعملوه في حمل هذا التمثال الثقيل مسافة طويلة، ثم انتقلت ملكيته إلى بستاني ،ثم إلى جندي، ثم إلى أخوين يعملان عند أحد الأغنياء كانا يصنعان الحلوى ويطهيان الطعام فعاش في كنفهما عيشه هنيئة،إذ كان يأكل الحلوى والطعام المصنوع،لكن الأمر لم يدم ،إذ تنازع الأخوان واتهم كل منهما الآخر بأنه يأكل تلك الحلوى، إلى أن اكتشفا السر فأخبرا سيدهما، فتعجب من الحمار الذي يملك ذوقا فاشتراه من الأخوين ليؤجره للناس من أجل التسلية. إلى أن أتى يوم أجره رجل ليؤدي به عرضا مسرحيا مخزيا ، فهرب الحمار وبقي هكذا يجري إلى أن أدركه التعب فنام، وعندما استيقظ وجد نفسه أمام شاطئ البحر ورأى البدر في كبد السماء فعلم بأنه وقت الخلاص فغطس رأسه في أمواج البحر سبع مرات وتضرع بخشوع إلى ملكة السماء أن تخلصه مما هو فيه، ولما عاوده النوم رأى الإلهة (إزيس) في حلمه وقد استجابت إلى دعائه. وفي الغد عندما وصل موكب الإلهة للاحتفال بها رأى لوكيوس الراهب يحمل إكليل الورد فأسرع إليه وأكل منه فعاد إلى هيئته ،وحكى قصته للراهب والحاضرين، ومن يومها كرس حياته لعبادة إيزيس حتى أفضت له بسرها فأصبح راهبا في معبدها.

مفهوم قصة الإطار:

جاءت قصة الإطار من إطار اللوحة الفنية التي تضم بداخلها مجموعة من الشخصيات، أو منظرا طبيعيا يتكون من مجموعة من الأماكن المتباينة.

الألمان هم أول من استعمل هذا المصطلح في السرد، ثم ظهر المصطلح عند الانجليز بمعنى Frame Work فالأول بمعنى إطار، و Work بمعنى عمل أدبي(4).

كما يطلق عليها الاستهلال Prologue، الحكاية الإطارConte-Cadre الحكاية الذريعة Conte-Pretexte. ومع نهاية القرن 19 استعمل الإيطاليون قصة الجانب Nouvella de Cornice وفي 1809 استعمل كوسكان الاستهلال- الإطار Prologue cadre الذي سيفرض نفسه بشكل نهائي (5)، ثم دخل المصطلح النقد العربي فأصبحت قصص الليالي تعرف بقصص الإطار.

والقصة الإطار هي القصة التي تتكون من البداية والنهاية ومابين البداية والنهاية تنتظم بقية الحكايات «ولأن هذا الاستهلال سيفسر لنا حسب مؤرخي الأدب الكيفية التي التحمت بها محكيات من أصل مختلف ومن طبيعة متنوعة إلى بعضها البعض، لسبب واحد هو كونها حكايات، وذلك على مر العصور، ومن خلال ورودها المثالي لم تكن هناك إلا وظيفة واحدة تلك التي أتاحت الانتماء إلى هذا الكل»(6).

وقصة الحمار الذهبي هي قصة الإطار، تتكون من الاستهلال والنهاية وما بينهما تنتظم حكايات كثيرة تمثل مغامرات أبوليوس بعد التحول.

بنية قصة الإطار: تقسم قصة الإطار إلى قسمين: الاستهلال والخاتمة

I- القسم الأول: الاستهلال: تقطيع النص

نقسم الحكاية الاستهلال إلى أربع مقاطع سردية كل مقطع يتكون من متوالية أو مجموعة من المتواليات .

المقطع الأول: لوكيوس هو الراوي الذي يحكي

لوكيوس ينطلق من مدينة يقوم برحلة إلى مقاطعه ثيساليا، أثناء الطريق يلتقي برجلين يتحادثان. كان واحد منهما حكى حكاية غريبة عن السحر فلم يصدقها الآخر. انخرط لوكيوس معهما في الحديث ودعا الرجل أن يكمل حكايته وأقسم له أن يصدقها، ووعد الآخر بتناول ما يريد عند أول حانة يصلونها فرضي بالمكافأة. وكان فضول لوكيوس يدفعه لمعرفة كل ما يتصل بالسحر.

نقسم هذا المقطع إلى ثلاث وظائف وهـــي:

الرحلة اللقاء الدعوة إلى الحكي

المقطع الثاني: أرسطومانيس هو الراوي يحكي حكاية التقائه بسقراط .

الراوي تاجر جوال حدث أن خرج إلى إحدى المدن قصد التجارة فلم يجد ما يشتريه، فذهب إلى الخان ليبيت ليلته ، فرأى زميله سقراط مكور في إحدى الزوايا مدثر بأسمال بالية متسخ، اقترب منه، وقدم له المساعدة أخذه إلى الحمام واشترى له الأكل، وقدم له النبيذ، ثم طلب منه أن يقص عليه حكايته.

نقسم هذا المقطع بدوره إلى ثلاث وظائف وهي :

الرحلة اللقاء الدعوة إلى الحكي

المقطع الثالث:

أ- سقراط هو الراوي، يحكي حكايته لزميله

حدث سقراط أن سافر وتعرض في الطريق للسرقة من طرف اللصوص، ولما وصل إلى المدينة التقى بامرأة عطفت عليه وقادته إلى منزلها وهو لا يعرف بأنها بغية وساحرة، فسحرته وبقي معها سنوات أخذت منه كل ما يملك ثم طردته، لكن سقراط لم يكن الضحية الأولى، بل هناك ضحايا كثيرين. سقراط وهو يحكي غلبه النوم فنام من تأثير النبيذ عليه.

ب–أرسطومانيس يحكي، لم يستطع النوم من شدة الخوف، وهو في هذا الجو فإذا الأبواب فتحت دون أن يفتحها أحد، وإذا بالساحرة تدخل هي والخادمة، ذهبت إلى سقراط غرزت السيف في عنقه وأخذت دماءه ثم أدخلت يدها وأخرجت قلبه ووضعت في مكان الجرح اسفنجة، ثم جاءت إلى أرسطومانيس وبالت على وجهه ثم خرجت، أغلقت الأبواب والأقفال كما كانت وكأن شيئا لم يكن، أصيب أرسطومانيس بالذعر. خرج من الخان أراد الفرار فلم يفتح له الحارس الباب الخارجي، عاد إلى الغرفة وحاول الانتحار فلم يسعفه حبل المشنقة حيث تقطع وسقط على سقراط فتدحرجا، استيقظ سقراط وتأكد منه زميله بأنه سليم معافى فظن أنه كان يحلم أو يهذي من شدة السكر، لكنه أسرع مع زميله وهربا من الخان خوفا من الساحرة.

بلغا مكانا بعيدا عن المدينة، جلسا ليصيبا غداءا، أحس سقراط بعطش فذهب إلى شاطئ النهر وما إن انحنى حتى سقطت الاسفنجة من الجرح حتى أصبح ثقبا كبيرا يترف، حاول صديقه المساعدة ، إلا أن سقراط مات، أصيب أرسطومانيس بالذعر وفر من المدينة. نقسم هذا المقطع إلى ثلاث متواليات اعتمد فيها السارد نظام التسلسل وهي :

بوح ← تحذير (سقراط يحذر صديقه) ← انتقام السحرة

خوف وحيرة ← نجاه سقراط ← هروب من الخان

استراحة ← موت سقراط ← هروب من المدينة

المقطع الرابع: لوكيوس يحكي عند وصولهم إلى المدينة وافتراقهم

عند وصوله المدينة، بحث عن بيت ميلو البخيل، أخذته الخادمة فوتيس إلى سيدها رحب به وتحادثا. خرج لوكيوس إلى المدينة للاستحمام وشراء الأكل، التقى بصديقة أمه، دعته إلى الإقامة عندها وحذرته من الساحرة زوجة ميلو أصر لوكيوس على المكوث عند ميلو، وكان الفضول يدفعه لأن يعرف الأعمال السحرية التي تقوم بها زوجة ميلو، وطد علاقته بالخادمة فوتيس، وفي غياب الساحرة يدعوها أن تطلعه على

الأعمال السحرية، أراد أن يجربها على نفسه، حيث كان يتمنى أن يصبح نسرا يحلق في السماء ويعود.

حدثت له حادثة كادت أن تودي به إلى حبل المشنقة، حيث عاد في الليل إلى بيت مضيفة، فوجد اللصوص عند الباب يحاولون السرقة، فضربهم بسيفه أرداهم قتلى . في صبيحة الغد أمرت السلطات بالقبض عليه بتهمة القتل، وبدأت محاكمته ثم طلب منه أن يكشف الغطاء على الجثث الثلاث، وما إن رفع الغطاء حتى أخذ الحضور يضحكون، فقد اتضح لهم بأنها ثلاثة قرب منتفخة رافعة قوائمها، فعرف بأنه تعرض لعملية سحر من طرف زوجة ميلو التي دبرت المكيدة للضيف الغريب، احتفالا بعيد إله الضحك.

ألح لوكيوس على فوتيس أن تمكنه من الأعمال السحرية، لكن فوتيس أخطأت في القوارير التي اختلطت وقدمت له المرهم الخطأ، وما إن دهن به جسمه حتى تحول إلى حمار.

يقسم هذا المقطع السردي إلى أربع متواليات ترتبط ببعضها بواسطة التسلسل

الوصول إلى المدينة ← بحث ← عثور على منزل ميلو

خروج ← لقاء ← تحذير

إصرار على المكوث ← خدعة ← نجاة

إصرار على معرفة السحر ← قبول ← تحول

بين المقطع الأول والثاني لقصة الإطار تأتي بقية الحكايات التي تمثل القصة ككل وهي مغامرات لوكيوس بعدما تحول إلى حمار.

القسم الثاني: من حكاية الإطار . تقطيع النص: نقطع القسم الثاني من الحكاية إلى ثلاث مقاطع سردية كل مقطع يتكون من متوالية أو مجموعة من المتواليات.

المقطع الأول: يبدأ من آخر حكاية، لوكيوس يروي انتهاء أمره إلى الشقيقين اللذين يصنعان الحلوى ويطهوان الطعام لأحد الأغنياء، كان ينامان في غرفة يشاركهما الحمار فيها، يعتمدان عليه في جلب الأغراض، وفي كل مساء يحضران معهما أشهى المأكولات والحلوى وفي غفلة منهما كان لوكيوس الحمار يأكل تلك المأكولات إلى أن حدث بين الأخوين نزاع واتهم كل منهما أكلها. ولكنهما وضعا كمينا ليعرفا اللص ففوجئا بالحمار يأكل تلك الأطعمة فتعجبا وأخبرا سيدهما ، فأعجب هو الآخر به واشتراه منهما وقام برعايته وترويضه من أجل تأجيره للعروض المسرحية ودور الملاهي من أجل التسلية.

المقطع الثاني :حدث أن أجّره شخص من أجل تقديمه في عرض مسرحي مخجل، يتضمن تزويج الحمار من امرأة مجرمه كانت قد حكمت عليها المحكمة بالموت بأن تلقى للحيوانات المفترسة. عند انتهاء مراسم تزويجها مع الحمار لوكيوس تفتح الأبواب للحيوانات المفترسة ، لكن دون أخذ أدنى اعتبار لـــ.لوكيوس الحمار.

المقطع الثالث : عندما حان وقت العرض فر الحمار ، وأخذ في الجري حتى خرج من المدينة، ولما أنهكه التعب نام، وعندما استيقظ وجد نفسه أمام الشاطئ وقد شاهد قرص القمر المضيء فأيقن بأنها النجاة من المحن فغمس رأسه في أمواج البحر سبع مرات وتضرع لملكة السماء أن تحرره مما هو فيه.

لما عاوده النوم رأى في منامة الإلهة إيزيس، وقد استجابت لدعائه وأوحت له بالخطة ليتحلل مما هو فيه. وفي الصباح لما وصل موكب الإلهة لمح لوكيوس الكاهن يحمل إكليلا من الورد، فأسرع إليه وأكل منه فاستعاد هيئته البشرية ثم كرس حياته لعبادة هذه الإلهة حتى أفضت له بأسرارها وأصبح كاهنا في معبدها.

يقسم هذا المقطع السردي إلى مجموعة من المتواليات التي تنتظم مع بعضها بطريقة التسلسل.

لوكيوس عند الأخوين ـــ نزاع الأخوان ـــ اكتشاف السر

إخبار السيد ← إعجاب السيد بالحمار ← تأجيره للناس
لوكيوس عند صاحب المسرح ← العرض المسرحي ← هروب الحمار
نوم ← نهوض ← رؤية قرص القمر
الشعور بالسعادة ← القيام بالطقس ← التضرع للإلهة
استجابة ← نهوض ← وصول موكب الاحتفال
أكل الورد ← التحول إلى إنسان ← الوفاء لعبادة إزيس

البنيـــة العميقة للقصة:

تنبني دلالات القصة الإطار على مرتكزات أساسية هـــي:

***لوكيوس**: الشخصية الرئيسية في القصة، شخصية عادية، متعلم، نتمي إلى طبقة راقية، يسكن في مدينة هادئة، لم يحدد السارد معالمها غير أنها مدينة هادئة فيها خير عميم.

***الرحلة**: يقوم لوكيوس برحلتين الأولى في القسم الأول، والثانية في القسم الثاني، رحلتان مغايرتان، وعلى طرفي نقيض؛ الأولى رحلة نحو المجهول، والثانية رحلة الخلاص.

أ–رحلة المجهول: يتأهب لوكيوس إلى القيام برحلة إلى ثيساليا دون أن يحدد دوافع هذه الرحلة، لكن مع تطور السرد نجد هذه الشخصية مدفوعة بشكل واضح إلى حب المعرفة، والفضول إلى اكتشاف الآخرين، واكتشاف العالم من حوله:«ولما سمعت هذا، وأنا مولع بالأخبار الطريقة قلت له:

–دعه: يفعل ذلك رجاء وافتحا لي المجال لأشارككما في الحديث، ليس ذلك لأني رجل فضولي، وإنما لأني أريد أن أعرف كل شيء أو بعضه على الأقل »(**7**).

انخرط مع الرجلين وشاركها حديثهما وألح على معرفة الحكاية التي تدور حول السحر رغم أن هذه الحكاية تمثل تحذيرا غير مباشر لهذه الشخصية للابتعاد عن الأعمال السحرية، لكنه أصر على ذلك وواصل طريقة حتى كانت الأعمال السحرية وبالا عليه، وكانت نتيجة الرحلة الانتقال من لوكيوس الإنسان إلى لوكيوس الحمار.

ب–رحلة الخلاص: هذه الرحلة تمثلها المرحلة الثانية عندما تحول إلى حمار بفعل السحر، وتعرض إلى متاعب كثيرة كادت أن تودي بحياته. وهي رحلة إلى وجهة غير معروفة –وإذا كانت الرحلة الأولى الفضول هو من يدفعه إليها. فإن الرحلة الثانية الخوف والندم هما من يدفعانه إليها.

تبدأ الرحلة من عتبة العرض المسرحي والموت مع تلك البغية المجرمة، الموت الشنيع بالإضافة إلى العار، فهي رحلة حاسمة ومصيرية حيث أصبحت حياته في الميزان، إما أن يرحل وإنما أن يموت. ولم يك أمامه خيار غير القرار الصائب «وفي أثناء ذلك مكنت أفكاري من حرية القرار»(7).وكان قراره الأخير هو الهروب من الوضع المخزي الذي آل إليه، فكانت حقيقة رحلة الندم والتوبة والتوجه إلى الإلهة والتضرع إليها. وكانت نتيجة الرحلة التحول من لوكيوس الحمار إلى لوكيوس الإنسان.

***المدينة**: تمثل المحطة الأولى من الرحلة الأولى ، قدم الراوي ملامح هذه المدينة التي يحيط بها الشر من كل جانب، فالمجتمع الذي يحيط بلوكيوس البطل. هم: قطاع الطرق، اللصوص، الانتهازيون ،البخلاء، الفقراء، الضعفاء الذين يموتون تحت رحمة الأغنياء الأقوياء ، وأنماط من النساء منهن؛ المرأة الساحرة الماكرة في صراعها مع الرجال، والمرأة البغية، والمجرمة، والغاوية.

في سوق هذه المدينة يلتقي بصديقة أمه التي تحذره من الساحرة زوجة ميلو لكنه يصر على المكوث في بيت هذا الرجل.

***بيت ميلو**: مكان مغلق غير مؤثث تأثيثا جيدا ، مظلم، وفي هذا دلالات على أنه يوحى بالمخاوف، وتتقاطع صفات هذا المكان بشخصياته.

فالمضيف ميلو شخصية بخيلة وسلبية ، لا يقدم لمضيفه شيئا غير الاستراحة في المكان لا تتضح معالم هذه الشخصية إلا من خلال بخلها.

***زوجة ميلو** الساحرة: تمثل الشر والفساد أو الخطيئة، من خلال أعمالها السحرية التي تستعملها للرجال لإغوائهم والسيطرة عليهم وسلبهم أموالهم أو تسليط العقاب عليهم والانتقام منهم.

*الخادمة فوتيس: تمثل الإغواء، فهي الفتاة الحسناء التي يقع لوكيوس في حبها، وكان يحلم بأن تساعده على أن يتحول إلى نسر يطير ويحلق في السماء، وفي المساء يعود إليها، ولكن مع الأسف عن طريق الخطأ تحوله إلى حمار.

إذا ربطنا بداية القصة مع نهايتها وجدناها تنبني على فكرة فلسفية دينية، هي قضية الإنسان في هذا الوجود أو بالأحرى رحلة الإنسان في الحياة، مرحلة الصفاء ثم مرحلة الخطايا ثم مرحلة التوبة.

شخصية لوكيوس رمز للإنسان في طفولته ، يخرج إلى الحياة لا يحمل هدفا معينا، فبداية الرحلة تتميز بالصفاء، كالمكان الذي خرج منه أول مرة لا يحمل من الملامح إلا الجمال ، كذلك الحصان الذي يمتطيه أبيض كالثلج وهو رمز للصفاء والنقاء ، والرحلة التي يقوم بها لا هدف لها إلا التطلع والمعرفة إلى الآخرين والمجهول المحيط به.

أما المحطة الأولى من هذه الرحلة وهي المدينة المحفوفة بالمخاطر والشرور ورمز لهذا العالم المليء بالشرور والإغراء، ولكن لوكيوس في هذه المدينة كان منساقا وراء أهوائه، وفضوله حتى وقع في الخطيئة وهي استعمال السحر، ثم التحول إلى بهيمة، فلوكيوس بعد التحول كان يحمل عقل وقلب إنسان في جسم بهيمة ؛ وفي هذا دلالات على أن الخطايا تكبل العقل والقلب وتجعل الإنسان كالبهيمة يسير على غير هدى ،ومن هنا تبدأ آلام وعذابات لوكيوس الشاب وهذه المرحلة رمز لفترة الشباب.

المحطة الثانية هي المرحلة الثانية رحلة الخوف والندم التي تؤدي إلى التوبة والإيمان.

ومن هنا فنحن أمام خطين؛ الخطيئة والإيمان، الأول يمثله التحول من إنسان إلى حمار كان ذلك عن طريق الخطأ والخطيئة أي الشر، وعن طريق الإنسان أي لوكيوس هو المتسبب.

والثاني يمثله التحول من حمار إلى إنسان وكان ذلك عن طريق الخوف والتوبة ، أي الطريق إلى الخير وتم التحول عن طريق الإله.

شر ◄	إنسان	إله	► خير
خطيئة			إيمان
عذابات آلام			شكر ابتهال
عدم استقرار			راحة

الهوامـــش:

*مدينة مداوروش بالشرق الجزائري ، تابعة لولاية سوق اهراس

(1) – ينظر/ عثمان سعدي، عروبة الجزائر عبر التاريخ، ش.و.ن.ت 1982، ص74.

(2) –ترجم الكتاب عدة مرات، ثم ترجمه ترجمة كاملة أبو العيد دودو، منشورات الاختلاف، ط2، 2004.

(3) –أحداث الرواية وقعت في اليونان.

(4) – داود سلوم، قصة الإطار العربية، سلسلة دراسات من الأدب المقارن، المركز القومي للنشر، ط1، 2000، ص9.

(5) – جمال الدين بن الشيخ، ألف ليلة ولية، تر: محمد برادة، المجلس الأعلى للثقافة، ط1، 1998، ص24.

(6) – نفسه، ص25.

(7) – لوكيوس أبو ليوس، الحمار الذهبي، تر:أبو العيد دودو، الدار العربية للعلوم، ط3، 2004، ص42.

(8) – المرجع نفسه، ص228.